

مقدمة:

إن البحث في موضوعات الفلسفة الحديثة وعن الأفكار التي فرخت في ثنيها وعن المشكلات التي واجهها الفلاسفة في الانشغال بمرحلة تحطى ثقافة العصور الوسطى واستناف إنجازات عصر النهضة الذي كان ملمحاً قوياً بوجود معضلات فلسفية عميقة لها صلة مباشرة بواقع المجتمع الأوروبي، الذي كان بحاجة إلى لمسة فكرية قوية تضيء له الطريق نحو الأفق العقلاني والعلمي، سعياً إلى تحديد الرؤية حول المسائل الدينية والاحلاقية والسياسية والفكرية بوجه عام.

لذلك كانت هناك رغبة قوية لدى الفلاسفة العقلانيين والتجريبيين التحرر من الإرث الوسيطى والعودة إلى استغلال النماذج الفكرية والفلسفية التي تجلت فيها أسئلة المعرفة، بدءاً من الفلسفة اليونانية التي تعتبر مركز شحن فكري، تولدت منه طاقة معرفية محملة بأسئلة فلسفية ثرية، تعلقت أساساً بمفاهيم متصلة بالوجود والمعرفة والقيم. إذ تعرضنا في هذه الفلسفة إلى "سقراط" ثم "أفلاطون" و"أرسطو"، هؤلاء الذين شقوا المجاري الفكرية إلى وجهة المفاهيم التي تشكلت في إطار المعرفة الفلسفة، إذ ينبغي على العقل الفلسفي متابعة جذورها التأسيسية وأخذ هذه الأسئلة على محمل من الجدوية الفكرية، لكونها ما تزال مصدراً يعترف منه الفلاسفة المعاصرون.

أما عن الاهتمام الفلسفي، فقد استأنف الفلاسفة في ممارسة تأثيرهم الفكري والنقدي في مرحلة الفلسفة الحديثة، فركزوا على إشكالية المعرفة الفلسفية في طبيعتها المتعلقة بمصادرها وأدواتها وغاياتها؛ فهذه الإشكالية المركزية، هي التي حددت المفاصل الرئيسية لآليات الانتقال المعرفي وانعكاسها على التحولات الفكرية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية والدينية، التي كان روادها يسجلون أهم لحظات الحداثة الفكرية ومنعطفاتها، أمثال "ديكارت" و"اسبينوزا" في ثقافة المذهب العقلاني، و"دافيد هيوم" و"جون لوك" في الثقافة الإنجليزية التجريبية، ثم "كانط" و"هيجل" في الثقافة المثالية، و"ماركس" و"انجلز" في الثقافة المادية.

لقد أتت مسائل النقد التي خضعت له المعرفة الفلسفية ضمن هذه الهيكلية الجديدة التي مست بصورة مباشرة موضوعاتها، مما يؤكد صلاحية الفكرة التي تمسك بها الفلاسفة والعلماء، وهي، أن كل معرفة تبدأ بسؤال، وهذا السؤال لا يشتغل في حقل الفلسفة فقط، وإنما امتد إلى مجالات العلم، على الرغم من أن موضوع المعرفة يختلف اختلافاً أساسياً عن موضوع الوجود، لأنه يتعلق بالإنسان من حيث هو كائن يملك القدرة على معرفة الأشياء وإدراك حقائقها وطبيعتها، لأن الفلسفة منذ القدم اهتمت بموضوع المعرفة وتناولتها من زوايا مختلفة: إمكانها، مصدرها، طبيعتها؛ فالإمكان يتعلق بقدرة

الإنسان على تحصيل المعرفة، والمصدر يتعلق بالوسيلة التي يعتمد عليها في البحث عن المعرفة، أما عن الطبيعة، فهي تتعلق بعلاقة الذات العارفة بموضوع المعرفة.

لقد أخذت هذه المعرفة الفلسفية تثمر بأسئلتها وأفكارها عندما تحررت بفضل النقد من الحصار الميتافيزيقي، في الوقت الذي أصبح فيه طموح الفلاسفة واسع جداً، لا يقبلون بفكرة أن الفلسفة تقوم بترويض العقول على نمط واحد من التفكير، بل فرضوا عليها أن تنح إلى المساءلة والإثارة والاختلاف في النظرة التي تقيمها حول مختلف الموضوعات، فتكون في هذه الحالة أسئلتها مشروعة بسبب تزايد همّ هذه الهواجس المتعلقة بالشكل الذي ستكون عليه المنظومة المعرفية في صورتها الجديدة واستثمارها في تغيير الواقع الاجتماعي والاقتصادي والديني.

هذه الكوسمولوجية المعرفية التي استقرت في أذهان الفلاسفة أو العلماء أو الاستيمولوجيين، تعبر بدورها عن مجموعة من الافتراضات الفكرية والمادية والاجتماعية التي تكون أرضيتها، بمثابة الوصفة التي تقوم بمعاينة صور الممارسة النقدية الممكنة حول فرص إثراء ديناميكية معرفية ذات أبعاد علمية ونقدية واجتماعية وسياسية، يمكن للفلسفة أن تشهدها في أطوارها اللاحقة عندما تتصل بالعلم، لذلك تغيرت فكرة اليقين ومفهوم البدهة وماهية الحقيقة والواقع، وكل هذا تأكد على خلفية انهيار منظومة قديمة ونشوء منظومة جديدة، استيقظت فيه الفلسفة على واقع علمي ومعرفي متشظ لا حدود له، وهذا ما يوحي بأن النماء المعرفي قد سجل طفرة نوعية في اجتثاث الموروث الفلسفي من جذوره.

ومن خلال هذا التنقيب المعرفي والاشكالي في مقياس الفلسفة الغربية الحديثة، باعتباره وحدة التعليم الأساسية بمحاورة الكبرى، سيضيء الطلبة بشبكة من المفاهيم الفكرية حول الموضوعات التي انشغل بها الفلاسفة في حقبة تاريخية معينة من التاريخ الاوروي للوقوف على المنعطف الفكري والمعرفي في تغطية مسار التحولات الثقافية.

محاضرة رقم: 01

المصادر اليونانية للفلسفة الحديثة:

قامت الفلسفة اليونانية بإمداد الفلاسفات اللاحقة بأصول من الممارسات النظرية الحافلة بجملة من الأسئلة التي تحمل قلقاً فكرياً وإحراجاً فلسفياً حول قضايا الوجود والمعرفة والقيم، هذه الأسئلة بدأت تستقطب الفلاسفة للتنقيب عن محتواها وتجهز نفسها في توليد حركة فكرية منشغلة بإنتاج

المعرفة وتكوين المفاهيم والأفكار عن هذه الموضوعات التي أخذ الفلاسفة يتعاطون مع مشكلاتها، فكانت موضوعات الطبيعة والأخلاق والسياسة والفن محل اهتمام عصر النهضة، فهل تمكنت حركة الإحياء النجاح في التفاعل مع التراث اليوناني؟

1 – حركة الإحياء:

إن تنشيط عملية تعلم اليونانية والنقل منها إلى اللاتينية، وتكاثر في إيطاليا عدد الأدباء والعلماء كان له أثراً مباشراً في شغف الطبقة المثقفة معرفة الأدب القديم في القرن الخامس عشر، وكان الإيطاليون قد سكنهم إحساس كبير للعودة إلى أدبهم السالف، الأدب اللاتيني المملح باليونانية، ومن إيطاليا انتشر الأدبان إلى فرنسا وإنجلترا وألمانيا وهولندا، وكان ذلك بفضل اختراع الطباعة في منتصف القرن، فكانت عملية العودة إلى الثقافة القديمة، تحكمه أسباب عميقة متعلقة بآثار العصر الوسيط من أدب وفلسفة وفن وعلم ودين، وكذلك دواعي ما تفترضه الحياة السياسية والاقتصادية من عوامل النهوض والتطور.

هذه الثقافة القديمة تنضح بالوثنية من كل جانب، فانتشرت في مجال الأخلاق لتعيد رسم صورة حقيقية عن الفطرة والطبيعة وعن الإنسان وتكوين دراسة عن الإنسان التي تفضي فيما بعد إلى تشكيل النزعة الإنسانية وأصبحت الآداب القديمة تسمى بالإنسانيات، واعتقدت حركة الإحياء أن الأخذ بالتراث اليوناني والروماني، سيعطي دعامة قوية في تحقيق التفاعل الإيجابي مع مظاهر الحياة الدينية والفلسفية والأخلاقية والأدبية.

لذلك "أنجبه الفكر في عصر النهضة إلى إحياء التراث الفلسفي اليوناني والروماني بترجمة كتب مفكري العرب وفلاسفتهم في العصور الوسطى-واقترن هذا بالاعتزاز بالعقل الذي كانت السلطات الدينية في أوروبا قد استعبدهته وقيدت انطلاقته، والنزوع إلى استقاء الحقائق من التجربة، واستوعبت فلسفة العصر هذه المجالات"¹.

2 - حركة النهضة:

شهد القرن الخامس عشر في أوروبا تحولات جذرية عميقة بميلاد عصر النهضة، إذ مس بشكل عام الحياة الفكرية والاجتماعية حيث لم تكن تأثيراته على صعيد التاريخ وفقط بل شملت المناحي الثقافية والسياسية، فكانت السمة الرئيسة في هذه التحولات التي حصلت بعد أفول الحضارة العربية

¹ - توفيق الطويل: أسس الفلسفة، دار النهضة العربية، القاهرة - مصر ، ط5، 1967، ص 53.

الاسلامية وتزايد هموم البحث عن الاستقلالية الثقافية التي تطمح إليها في تقديم صورة جديدة عن الانسان وعن كيفية فهم العالم.

لكن الأمر اللافت للنظر، يكمن في التحول المعرفي الذي بدأ فيه العقل الأوروبي يجهز نفسه للتحري من هيمنة الكنيسة التي أحكمت قبضتها الدينية على الوضع الاجتماعي في احكام خطابها اللاهوتي الذي كان يحمل طابعاً مسيحياً، هذا الخطاب الديني، كان هو الخطاب السائد في كل المؤسسات التي تشرف عليها، رغبة منها الحفاظ على كيانها ووجودها على مختلف المستويات، هذه التحولات الكبرى جعلت عصر النهضة يحظى برؤية خاصة، إذ يقول "جون فرنسوا ديما": "يمكن لنا أن نصف المرحلة الممتدة من القرن الخامس عشر إلى القرن السادس عشر، هي مرحلة انتقال من العصر الوسيط إلى العصور الحديثة كعصر النهضة وبروز النزعة الانسانية والابتكارات والاكتشافات والاصلاح الذي أفضى في النهاية إلى تشكل الدول القومية"¹.

3- المقاربة الفلسفية لمفهوم النهضة:

"كان "ميشليه" أول مفكر يعرّف عصر النهضة على أنه فترة تاريخية حاسمة في الثقافة الأوروبية مثلت فاصلاً جوهرياً مع العصور الوسطى، والتي صاغت فهماً حديثاً للبشرية ومكانتها في العالم. كما روج لعصر النهضة على أنه يمثل روحاً معينة أو موقفاً بعينه بقدر ما يشير إلى فترة تاريخية محددة. لم يبدأ عصر النهضة كما يراه "ميشليه" في إيطاليا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر كما قد نتوقع، وإنما القرن السادس عشر. وبصفته قومياً فرنسياً، فإن "ميشليه" كان شغوفاً بأن يدعي أن عصر النهضة كان ظاهرة فرنسية"¹.

اصطبغت فلسفة النهضة الإيطالية بشكل خاص بإعادة اكتشاف كل من أفلاطون وأفلوطين، يعود الفضل في نقل هاتين الفلسفتين إلى إيطاليا "بلاتون" Plethon الذي نقل المعارف اليونانية إلى إيطاليا وإلى كوزيمودي مديتشي الذي أعاد تأسيس الأكاديمية الأفلاطونية في فلورنسا عام 1495. أما أبرز

¹-J-L. Dumas: Renaissance et siècle des lumières, T2, édition, Tallandier, 1990, p.11.

¹ - جيري برتون: عصر النهضة، ترجمة، ابراهيم البيلي محروس، منشورات مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة- مصر، ط1، 2014، ص 15.

ممثلي التيار الأفلاطوني في عصر النهضة فهم، مارسيليو فيتشينو "وجان بيكو دي لاميراندولا" الذين حاولوا تشكيل صورة أصيلة عن الفرد²

ومن خلال ترجمات فيتشينو وكتابات انتشرت أفكار أفلاطون في جميع أرجاء أوروبا، تستند فلسفته بشكل خاص إلى فكرة الفيض في الأفلاونية وعلى تصوره لمعنى الجمال.

كذلك شهدت الأرسطية في هذه الفترة وفي بادوفا حركة تجديدية ومن ممثليها نشير إلى بيترو بومبوناتي وجاكوبو زابريلا. وشهدت الفلسفة الطبيعية بدورها حركة ناشطة. إلى جانب جيوردانو، المفكر الموسوعي في هذه الفترة.

" لم يكن النظر إلى تاريخ الفلسفة على هذا النحو، بل كان مغايراً تماماً. وذلك أن البحث في تاريخ الفلسفة قد بدأ بشكل واضح في عصر النهضة، وكان ذلك نتيجة لاكتشاف المؤلفات القديمة التي كتبت في تاريخ الفلسفة، وهذه المؤلفات القديمة كانت عبارة عن أقوال وإشارات وتلميحات إلى المذاهب الفلسفية عند اليونان والرومان وأكبر دليل الرجال الذين كتبوا كتباً من هذا النوع هم: فلوطرخس الذي كتب كتاباً عن " أقوال الفلاسفة " (" الآراء الطبيعية" كما سُمي عند العرب)، ثم القديس كليمانس الاسكندري صاحب كتاب "الأمشاج"، واستوبيه، أخيراً وقبل الكل: ذيوجانس اللائوسي، صاحب كتاب " حياة الفلاسفة"، وهو عبارة عن مجموعة مختلطة أشد الاختلاط من الأقاويل والمقتبسات والحكم عن حياة الفلاسفة، وكان هذا الكتاب المرجع الرئيسي لتاريخ الفلسفة في بدء عصر النهضة، وما زال حتى اليوم مرجعاً من أهم المراجع التي نرجع إليها في تاريخ الفلسفة اليونانية² .

"كان ينظر إلى العصور الوسطى على أنها تمثل فجراً جديداً بالنسبة إلى عصور من الظلام"¹ عاش فيها المجتمع الغربي ابان حكم الامبراطورية الرومانية حالة من الاستبداد الفكري والديني، لكن ما أن لاح عصر النهضة حتى بدا أنه فجر جديد بالقياس إلى العصور الوسطى التي أصبح يقال عنها أنها

²- François Chatelet : La philosophie de Platon à St Thomas, Ed, Marabout, Paris, 1991, p.46.

² - عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، الجزء الأول، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت- لبنان، ط1، 1984، ص 414.

¹ - يحي هويدي: قصة الفلسفة الغربية، دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة - مصر 1992، ص 43.

عصور الظلام. فكان من الطبيعي أن تتحول الأنظار بصفة خاصة في عصر النهضة إلى الفلسفة اليونانية أو استثمار التراث اليوناني، لكن المساءلة التي يجب اثارها تتمثل في الدوافع الفكرية التي حثت عصر النهضة للعودة إلى التراث اليوناني؟

لا شك أن العودة إلى التفاعل مع المرجعية الفكرية للتراث اليوناني ينم عن المكانة الثقافية التي يحظى بها في التراث العالمي، هذا الذي جعل مفكري عصر النهضة يحتضنون هذا التراث من باب أن فلاسفة اليونان قد عززوا مكانة العقل الانساني، بعدما تعرض إلى شتى أنواع التجاهل والاضطهاد في مرحلة العصور الوسطى من قبل الكنيسة، هذه الأخيرة عملت كل ما في وسعها، طمس حرية العقل الانساني وارغامه على التسليم بأوامر السلطة الدينية.

إن قدوم عصر النهضة بمشروعه الفكري والعلمي جعل رواد هذا العصر يقومون باحتضان أفكار جديدة تتجه نحو ترقية العقل الانساني في مختلف المجالات الثقافية والسياسية والدينية والعلمية، لأن احياء التراث اليوناني سيقود لا محالة إلى احياء حرية الفكر الفلسفي الذي بفضلته تمت خلاله تقديم صورة ناضجة عن سمو الموضوعات التي طرحتها.

4- النهضة وحركة الاصلاح:

من مميزات عصر النهضة وجود ميول قوية نحو التغيير والاصلاح الذي شمل كل الميادين، أما على المستوى الاجتماعي بدأت ارسنقراطية تجارية جديدة تنافس ارسنقراطيات الكنيسة ونبالة الأرض القديمة، أما الحديث عن حركة الاصلاح الديني يقودنا إلى روادها "كالفن" و"مارتن لوثر" هذا الأخير، قاد حركة الاصلاحات التي استهدفت الكنيسة المسيحية تحت تأثير مطلب تجديد قواعدها الايمانية، خصوصاً فيما يتعلق بالموقف الديني من بعض البابوات الذين بالغوا في ممارسة السلطة، كذلك تضاؤل سلطة الدين عند صغار الاكليروس التي كانت خلف انهيار المنظومة الاخلاقية.

يمكن حسب المفكر الأمريكي "جون هرمان راندال" تلخيص نتائج مسيرة الاصلاح البروتستانتية في ثلاث نقاط:

أولاً: تبسيط مجوع العقيدة المسيحية مع تشديد على نظرية الخلاص ووسائلها واعتبارها الدعائم الأساسية.

ثانياً: التشديد الفردي على الخلاص واعتباره علاقة مباشرة بين النفس وخالقها، واعتبار الدين أمراً شخصياً عميقاً.

ثالثاً: ما نتج عن ذلك من إهمال لنظام الطقوس الدينية الذي عرفته كنيسة القرون الوسطى وما رافقه من تسلسل في مراتب الكهنة¹.

هذه الاصلاحات المتعلقة بالشأن الديني وجدت أن الجو العام يوحى بوجود استعداد لتقبل كل جديد.

لم يبق الأمر متعلقاً بالجوانب الدينية، وإنما امتد إلى المسائل العلمية بما في ذلك علم الفلك البطليموسي المتمثلة في سوء اتفاهه مع الملاحظات وفي عدم دقته وفي توقع الظواهر وحسابها المضبوط، الذي أصبح تبدو عقبات أمام تقدم العلم والمعرفة في فترة كثر فيها الرحلات والاستكشافات، فقد اهتم البرتغاليون مع مطلع القرن الخامس عشر بالرحلات حيث اكتشفوا أمريكا. لكن نجاح الرحلات واستمرارها راحا يفرضان بإلحاح تحسين الخرائط وتقنيات الملاحظة الفلكية التي تتطلب — كما نعلم - معرفة دقيقة بالسماء¹.

هذه الوضعية خلقت الحاجة إلى فلكيين أكفاء وكمظهر لهذه الحاجة استشعرت الدوائر العليا في المجتمع الأوروبي الحاجة إلى التقويم الجاري به العمل نظراً لتفاهم أخطائه وتزايدها مع الزمن؛ بل إن البابا نفسه طلب من "كوبرنيك" أن يتولى الاشراف على هذا الاصلاح، لكنه رفض اعتقاداً منه أن اصلاح التقويم في إطار نظريات بطليموس المتوافرة، والملاحظات المعمول بها، لن تجدي نفعاً، فالأمر يقتضي الاصلاح علم الفلك برمته.

¹ - جون هرمان راندال: تكوين العقل الحديث، ج1، ترجمة جورج طعمه، دار الثقافة بيروت - لبنان، (د.ت)، ص 226.

¹ - سالم يفوت: ابستمولوجيا العلم الحديث، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء - المغرب، ط2، 2008، ص 20.

